«يا ليلة»..
كأس «هشام» وليلة «حازم» و«حسام»
(١)

متى يعتزل حسام حسن؟ السؤال يتصدّر أغلب صفحات الرياضة في الصحف المصرية. في فبراير ١٩٩٨ أصرّ «الجوهري» على اصطحاب حسام حسن لقيادة هجوم المنتخب في بطولة كأس الأمم الإفريقية ببوركينا فاسو، سافر المنتخب إلى المجهول محملًا بإحباط يزن ٩٠ مليون خبير كروي، ومانشيت أكثر تشاؤمًا على لسان «الجوهري» في «الأهرام الرياضي»: «سنلعب على المركز الثالث عشر في البطولة».

يمتلك «الجوهري» رأسًا من فولاذ، وقلبًا من حديد، نعرف ذلك منذ أجلس طاهر أبو زيد على الدكة في كأس العالم بإيطاليا، وها هو الآن مؤمن بابنه البار حسام حسن الذي قدّم مستوىً هزيلًا طوال مباريات الدوري مع الأهلي، حتى إن علي ماهر القادم من الترسانة خطف الأضواء منه. غاب «حسام» عن النسخة السابقة من البطولة في جنوب إفريقيا بعد خلاف مع رود كرول، وهاهو مُطالب بالاعتزال بعد أن فشل في هزّ الشباك خلال المباريات الودية التي سبقت البطولة، ولكن لـ«الجوهري» دائمًا وجهة نظر.

إلى السعودية سافرت لأقضي إجازة نصف العام مع والدي، كنت قد استقررت في مصر منذ عدة أشهر؛ لإكمال دراستي، والدي زملكاوي حتى النخاع، ورثت عنه حب الزمالك وكرة القدم، المشاهدة معه متعة مختلفة أحرص عليها حتى الآن، لهذا كان صعبًا أن أبدأ البطولة معه، وأنهيها في منزل العائلة بالفيوم.

بعد أن سجّل حسام حسن خمسة أهداف في مباريات الدور الأول، وصعدت مصر بأداء مبهر وهدف أسطوري وحيد هزّ شباكها بقدم المغربي مصطفى حجي، عدت إلى مصر منتظرًا بقية المشوار، عبرنا كوت ديفوار ودور الثمانية لأول مرة منذ ١٤ عامًا، وجاء موعد بوركينا فاسو، قبل المباراة بثت القناة الثانية فيديو كليب لأغنية هشام عباس الجديدة «يا ليلة»، مرّت الأغنية للوهلة الأولى مرور الكرام. ٩٠ دقيقة مرّت لا أتذكر منها حاليًا سوى جملة أحمد شوبير الشهيرة بعد كعب حازم إمام: «يا سلام يا حازم.. يا سلام يا حسام»، فازت مصر، وأعاد التلفزيون بث الأغنية على سبيل الاحتفال.

«لولا ولولا عيونك دولا ما كنت عشقت ودوبت الليلة أنا أول عمري الليلة.. يا ليلة يا ليلة يا ليلة».

ويا لها من ليلة تلك التي قضيناها بعد هدفي أحمد حسن وطارق مصطفى في النهائي أمام جنوب افريقيا، فزنا بالكأس، وخرجت الجماهير تحتفل في الشوارع في مشهد افتقدناه منذ الصعود لكأس العالم ٩٠ بإيطاليا، ولأن النجاح رزق كانت الفرحة المُنطلقة بين سطور ولحن أغنية «يا ليلة»، ملائمة تمامًا للفرحة في شوارع القاهرة وكل المحافظات،

تحوّلت الأغنية إلى نشيد وطني في التلفزيون المصري، وتَفنن المُخرجون في إذاعتها تكرارا ومرارًا مصحوبة بأهداف المنتخب في البطولة، كان محمد نصر على ما أظن صاحب تلك الفكرة التي تحولت إلى عُرف «بغيض» في أغلب برامجه بعد ذلك. ارتبطت الأغنية بالبطولة، وربما بصلعة حسام حسن التي استمرت معه حتى الآن، أعشق الارتباطات الشَرطية بين الأشياء، في حقيقة هي ما يعيد ربط مسامير ذهني لتذكّر الأشياء، كل لحظة ارتبطت بفرحة، حزن، ألم، أغنية، أو فيلم، هي حكاية محفوظة في أرشيف العقل تمامًا مثلما يتذكر هشام عباس قصة الأغنية الأهم في مشواره.

(٢)

يحكي «هشام»: «يا ليلة» مرتبطة لدي بأشياء كثيرة، هي بداية تعاوني مع صديقي الموسيقار الراحل رياض الهمشري، خلال إعدادنا للألبوم قدّم لي أغنية «بدري عليك الهوى»، كانت من كلمات عنتر هلال، وبعد فترة قال لي إن لديه لحنًا لمطلع أغنية، مجرد جملة موسيقية غنى عليها: «يا ليلة يا ليلة يا ليلة». فقط لم يجد بقية للحن ولا للكلمات.

«هشام» لديه مخزون جيد من الأغاني الفلكلورية كما يقول، وهنا كان لديه مقطع من أغنية قديمة تقول كلماتها «ما تجوزيني يا أمه.. ما تجوزيني يا أمه.. حاضر يا ولدي»، أراد «هشام» مزج مقطع رياض الهمشري وهذا المقطع، وجاء عنتر هلال ليضع بصمته في مطلع الأغنية ليقول: «لولا ولولا عيونك دولا.. ما كنت عشقت ودوبت الليلة.. أنا اول عمري الليلة»، ثم أكملوا الأغنية، ومنحها شهاب حسني

توزيعًا صاخبًا، بإضافة صوت جمهور في الخلفية؛ ليمنحها تأثير الحفلات الحية، ورغم صدور نسخة «ديسكو» منها في نفس الألبوم، إلا أن نسخة «اللايف» نجحت، ولم يتفلسف صناع الكليب، فكان مجرد حفلة يغني فيها هشام الأغنية وسط الجمهور.

كانت طريقة ميكانيكية غريبة في صياغة أغنية أشبه بتجميع قطع جهاز كمبيوتر من «مول البستان»، تشتري الشاشة من محل، ولوحة المفتيح والفأرة من آخر، وبقية المحتويات مثل الذاكرة وشرائح السرعة «رامات» من ثالث، وربما كانت تلك الطريقة بداية لصياغة مختلفة للأغاني في مصر خلال الألفية الجديدة.

بعدها أصبح رياض الهمشري بصمة مستمرة في أغاني هشام عباس، حتى توفاه الله في بيروت صيف ٢٠٠٧ قبل أن يتم عامه الثامن والأربعين، لم ينل «رياض» حقه من الشهرة والأضواء رغم موهبته الفذة، في السادسة اكتشف خاله الفنان صلاح الهمشري موهبته، وكان أول أغنية يغنيها «الورد جميل» للشيخ زكريا أحمد في برنامج «جرب حظك» للإذاعي الراحل طاهر أبو زيد، ثم في عام ١٩٦٥ تقدّم لاختبارات الإذاعة وتجاوزها بسهولة مطرب محترف، مما فتح أمامه أبواب حفلات أضواء المدينة، قال عنه الموسيقار محمد عبد الوهاب: «صوته دمه خفيف، وراكب على المقام، وطاقته كبيرة»، أما فريد الأطرش فكان مبهورًا بأدائه حتى قال عنه: «لم أسمع أحدًا ردّد لحنًا من ألحاني من قبل مثل رياض».

قدّم رياض عشرات الألحان الناجحة لعمرو دياب،

ومدحت صالح، وعلي الحجار، ومحمد منير، وبالطبع هشام عباس، إلا أن تجاربه كمطرب لم تكن ناجحة رغم حلاوة صوته، حتى إنه كان يقدّم الأغنية للمطربين جاهزة بعُربها وتَطريباتها ليُغنوها بروحه، ولكن أحدًا لم يتمكّن من ملامسة إحساسه مثل هشام عباس، وهو ما اعترف به «رياض» صراحة في لقاء مع التلفزيون اللبناني قبل وفاته بعام تقريبًا.

رحل رياض الهمشري، وتوفي محمود الجوهري، واعتزل حسام حسن، وبقيت أغنية «يا ليلة» على قيد الحياة تقفز للأذن كلما أنعش أحدهم ذاكرتنا بمشهد لاعبي مصر وهم يصطفون حول رئيس الجمهورية في مطار القاهرة ببدلات التدريب «الترنجات» الزرقاء الشهيرة التي تحوّلت إلى موضة وقتها.

للقصة بقية:

قبل نجاح أغنية «يا ليلة».. وبسنوات بعيدة، عرفت هشام عباس من أغنية «حلال عليك»، الدويتو الشهير مع حميد الشاعري الذي فتح باب الشهرة لمهندس الصوت الذي ظهر معه في كليب «جلجلي»، كان «هشام» عضوًا في فريق «أمريكانا شو» الذي أسّسه طارق الكاشف. قدّم هذا الفريق ألبومًا اسمه «سهاري»، ولكن بين أغنياته كانت «الله يسلم حالك» حالة خاصة تسير معك في طريق طويل مثل طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي الذي وُلدت فيه الأغنية.

يحكي حميد الشاعري أن والده كان يودّعه دائما بجملة «الله يسلم حالك يا ولدي»، في إحدى زياراته للإسكندرية

بصحبة الشاعر عادل عمر، ودّعه الحاج علي الشاعري بنفس الجملة، أضاءت الكلمات فكرة أغنية في رأس «عادل» فكتبها، ودندنها «حميد» وهما على الطريق، وعندما وصلا إلى القاهرة سمعها «هشام»، وضمّها للألبوم الذي صدر عام ٩٠، وأصبحت واحدة من أفضل أغنياته حتى الآن.

يبقى هشام عباس غنوة مختلفة وسط موجة غنائية لم تعش أكثر من عشر سنوات، بحكم الذوق المتقلب، بحكم الزمن، بحكم تكنولوجيا تضرب كل المعايير وتغيّرها بسرعة، لا تفسير واضحًا سوى عدم القدرة على المواكبة والاستمرار، ولكن هذا لا يبخس حق مطرب قدّم أغنيات كلما نظرت في أسماء صناعها أتفاجأ، مثلا أغنية «أنا حلمك» لحنها أحمد الحجار في تعاون مدهش مع «هشام»، وصدر لها ثلاثة توزيعات أشهرها نفّذه حميد الشاعري، وآخر للموزع أحمد الجبالي، وثالث نفّذه أحمد الحجار بنفسه، أغنية «كام مرة» التي لحّنها له صلاح الشرنوبي في عزّ مجده عندما كان المطربون يقفون في طابور طويل للحصول على موعد مع ملحن «قنابل» وردة الشهيرة «حرمت أحبك».

«يا ليلة»
غناء: هشام عباس
ألحان: رياض الهمشري
كلمات: عنتر هلال
توزيع: بهاء حسني
إنتاج: أفريكانا